ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٨﴾

**شرح الكلمات:**

**جنات النعيمِ**: النعيم: الخَفْضُ والدَعَة؛ المال (الأقرب). والنعيم: النعمة الكثيرة (المفردات).

**التفسير**: أي حين تأتي تلك الساعة ستقام حكومة الله في الدنيا وينمحي الشرك والكفر.

وبالفعل ترى أن بيت الله الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل لعبادة الله وحده والذي ملأه فيما بعد أولادهما الضالون بثلاثمئة وستين صنمًا، طُهّر منها لدى فتح مكة، فكُسر كل صنم وطُرح خارج البيت. وكان النبي ﷺ يضرب كل صنم بعصاه ويقول ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(الإسراء:٨٢).. أي أن الحق قد جاء وأن الباطل قد ولّى، والباطل هارب لا محالة. عندما ضرب النبي ﷺ "هُبَل"، وكان أكبر أصنامهم، سقط وانكسر، فنظر أحد الصحابة إلى أبي سفيان وقال لـــه: يا أبا سفيان، أتذكر حين هتفتَ في وقعة أحد بكل زهو وغرور: اعْلُ هُبَل، اعْلُ هُبَل؛ فانظر كيف تناثرت قطعه المكسرة أمام عينيك؟ فقال أبو سفيان نادمًا: دَعْك من هذا يا أخي، لو كان ثمة إله سوى إلهِ محمدٍ رسول الله ﷺ ما رأينا اليوم ما رأيناه. لقد أيقنّا الآن أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه (السيرة الحلبية: فتح مكة، الجزء الثالث ص ٩٩).

وباختصار، فقد تحققت نبوءة ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ في ذلك اليوم بكل عظمة وجلاء، وقد دوّت بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها بأصوات "لا إله إلا الله".

ثم يقول الله تعالى ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.. أي أن الشيطان مهما حاول عرقلة طريق الجماعة الإلهية ومهما كاد ومكر، فإن أنبياء الله تعالى يصبحون غالبين في آخر المطاف، وتبوء مكائد الكافرين كلها بالفشل. ويحرز المؤمنون الرقي، ويحترق المعارضون كمدًا خائبين خاسرين، حتى تنقلب لهم الدنيا جحيمًا تلتهب.

والجدير بالذكر هنا أن البعض يطعنون في قول الله تعالى ﴿مَالِكِ يَومِ الدِّينِ﴾ قائلين: لماذا وصف القرآن الله تعالى بكونه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، بدلاً من أن يقال إنه "مَلِكُ يومِ الدين"، فإن الملِك أكثر سلطة واقتدارًا من المالك؟ والرد على هذا الاعتراض موجود في قوله تعالى ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ حيث بين الله تعالى أن الحُكم والمُلك يومئذ يكون لله تعالى، وسيحكم بينهم عندئذ. وهذا يعني أن الله تعالى ليس مالكًا فحسب، بل إنه أيضًا صاحب الحكم والاقتدار بشكل كامل، أي أنه تعالى ملِكٌ. ولكن هذا لا يعني أنه ملتزم بقانون من قِبل سلطة أعلى منه كما هو الحال بملوك اليوم، إذ يُفرض الالتزام بالقانون من قِبل سلطة عليا على من يمكن أن يظلم أو يستبد بالناس في قراراته، ولكن الله تعالى رحمن، فلا يكون في قراره ظلم ولا استبداد، بل تتسم معاملته مع الجميع بالرحمة والعفو وتؤدي إلى خير الجميع. كما يقول الله تعالى في مكان آخر ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ (الفرقان:٢٧).. أي أن الحُكم الحقيقي يومئذ يكون لله الرحمن. ويقول تعالى أيضًا ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار:١٩و٢٠).

فثبت من هذه الآيات أن لفظ ﴿مَالِك﴾ الوارد في سورة الفاتحة لا يعني أن الله تعالى مجرد مالِك فحسب، وليس مِلكًا، بل يعني أنه تعالى مِلكٌ مالِكٌ، ومن الواضح أن الملك المالك أفضل ممن هو مجرد مَلِك، بمعنى أن الملوكية وحدها لا تمنح السلطة التامة على الأشياء، حيث لا يجوز لمِلك أن يعامل رعاياه ويتصرف في أموال البلد كما شاء، ولكنه يتصرف في الأشياء التي هي مِلك لـــه تصرفًا مختلفًا يكون أكمل وأعلى من تصرفه المَلَكي. إذًا، فقوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لا ينفي كون الله تعالى مِلكًا، بل هو بيان لنوعية ملوكية الله تعالى، بمعنى أنه تعالى ليس مِلكًا فحسب، بل هو مِلكٌ مالِكٌ لجميع الخلق، والمِلك المالك يتمتع بحرية تامة في التصرف فيما يملك.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٩﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٦٠﴾

**التفسير**: هذا لا يعني أن المهاجرين في سبيل الله الذين قُتلوا أو ماتوا إنما يُرزَقون في الآخرة فحسب، ذلك لأن الخصم يمكن أن يقول: كيف أصدّق ذلك وأنا لم أر الجنة ولا أعرف مكانها؟ بل المراد من ذلك قومُهم أيضًا، لأن ما يعامَل به بعض القوم يُعتبر معاملة للجميع. فالمعنى أنه مما لا شك فيه أن هؤلاء المهاجرين يُقتلون ويموتون، ولكن الله تعالى سيمنحهم وقومهم كلهم كثيرًا من نعماء الدنيا والآخرة، أي أن الأحياء منهم ينالون نعم الدنيا على صورة المُلك والحكم، وينالون نعم الآخرة في شكل زيادة الإيمان.

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

**شرح الكلمات:**

**بُغي عليه:** بَغَى عليه: استطال عليه وظلمه (الأقرب).

**التفسير:** أي لا ينبغي العفو عن الظالم في كل مرة، بل يجوز الانتقام منه أحيانًا. فلا تظنّوا أنكم إذا انتقمتم من الظالم و لم تعفوا عنه فسيزداد شرًّا وتتفاقم مصائبكم. كلا، بل إذا انتقمتم من الظالم بقدر مناسب، فازداد ظلمًا، فاعلموا أن الله تعالى سينصركم، فلا داعي للخوف.

إن هذه الآية لا تبدو في الظاهر منسجمة في هذا السياق، ولكنك لو أمعنت النظر فيما سبقها من الآيات لوجدت فيها قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وقول الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾، وقول الله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، وأيضًا قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾. وقد تبين من هذه الآيات أن الحديث عن الحرب جار منذ عدة آيات، حيث بين الله تعالى أنه مهما كان عدد الذين يحاربون دفاعًا عن الحق قليلاً، فإنهم الغالبون لا محالة. فكان لزامًا أن يُلقي الله الضوء على هذا الجانب من الحرب ويبين ماذا سيحدث إذا ثارت حمية الكافرين أكثر بسبب انتقام المؤمنين منهم. فثبت أن هذه الآية ليست منقطعة عن السياق، بل جاءت في سياق الموضوع نفسه.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦٢﴾

**شرح الكلمات:**

**يُولِج**: أولجَه: أدخلَه (الأقرب).

**التفسير**: أي يجب أن لا تخافوا من مصائبكم ورقي العدو، لأن تاريخ العالم شاهد على أن الأمم المتقدمة تنهار في يوم من الأيام، لتسبقها الأمم المنهارة. فإذا كان اليوم لعدوكم، فالغد لكم. ثم يجب أن لا يغيب عن البال أن الله تعالى يسمع دعاء عباده ويبصر أحوالهم.

والمقصود من هذا البيان هو التأكيد على أن الله تعالى يخلق الظلمة بعد النور، والنور بعد الظلمة، والعسر بعد اليسر، واليسر بعد العسر، حيث بين أنه تعالى لم يصبح مخلوعًا من إدارة نظام الكون، بل إنه ينصر المظلوم ويظهر من أجله قدرته وجلاله. فلا داعي لقنوط المسلمين، فإن الله تعالى ناصرهم، وسيفتح لهم أبواب الرقي حتمًا.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٤﴾

**شرح الكلمات:**

**الباطل**: بطَل: أي فسَد أو سقَط حُكمُه وذهَب ضياعًا وخُسرًا (الأقرب). فالباطل: الضائع خائبًا خاسرًا.

**التفسير**: لقد بين الله تعالى أنه يدير نظام العالم لأنه القائم بذاته في الحقيقة ولأن الباطل هالك، فلو أن العباد كانوا على صلة بالباطل فلا بد من هلاكهم، ولو أنهم كانوا مع الحق والصدق فلا بد أن يظلّوا قائمين. فما دمتم، أيها المسلمون، على صلة مع اللهِ واجبِ الوجود فكيف يمكن أن تلقوا الهزيمة على يد قوم يتّبعون منهجًا مصيره الضياع والهلاك؟! إن هلاك الجماعة التي يقيمها الله تعالى يمثّل إساءةً له تعالى؛ إذ لا يبقى الله عندها عليًّا ولا كبيرًا. ولكن ربكم كبير حقًّا، فلا بد أن تصيروا كبارًا ومعززين، وإن أصنام أعدائكم حقيرة فلا بد أن يكونوا أقزامًا مهانين. انظروا إلى العالم المادي كيف يصير نضِرًا مخضرًّا عند نـــزول الماء، فكيف يمكن أن لا تكونوا نضرين إذا نـــزل عليكم الماء الروحاني، خاصة وأن الله تعالى عليم بسرائر القلوب وخبير بكل شيء.

لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٥﴾

**التفسير**: يقول الله تعالى إن كل ما في السماوات والأرض مِلكٌ لله تعالى، وأنه تعالى ليس بحاجة إلى شيء. فكل قربان هو يطالبكم به إنما هو لفائدتكم أنتم، ولا مصلحة لـــه فيه. ولو تدبرتَ أحكام الإسلام لوجدت أن كل ما أمرنا الله به إنما هو لمنفعة الناس، وليس لأنه يزيد من عظمته شيئًا. فمثلاً إذا كان قد أمرنا بالصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الصدقة أو البر أو الحج فذلك لأن جميع هذه الأحكام تنفع الإنسان شخصيًا. فمثلاً يقول الله تعالى عن الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٦). فالذي يصلي الصلاة حقًا فإن المنفعة الشخصية التي يجلبها بالصلاة هي حفظه من السيئات، عدا فوائدها الأخرى. كما أن من منافع

الصلاة أنها تجعل المرء يفكر دائمًا في جمع شمل القوم حيث يرى أنه يجب أن يكون بيننا في كل وقت إمام واجب الطاعة نرفع تحت قيادته اسم الله تعالى. ثم إن حضور المرء في المسجد خمس مرات يوميًّا ينفع المصلين أيضًا، حيث يطلع بعضهم على أحوال البعض، وبإمكانهم أن يستغلّوا ذلك لتقوية نظامهم.

وإن الصوم أيضًا عبادة هامة في الإسلام، ولكنه ينفع الإنسان نفسه وليس الله تعالى. فإن الصوم يروّض الصائم على تحمل المشاق، الأمر الذي ينفعه في حياته نفعًا كبيرًا. كما أن الصوم يُشعر الصائم بمعاناة الفقراء، فتزيد فيه الرغبة في رعايتهم والنهوض بهم؛ وهذا ينفع القوم ككل، فيحققون الرقي بسرعة.

ونفس الحال بالنسبة إلى الزكاة، فإنها سبب قوي لرقي القوم، حيث تأخذ الحكومة جزءًا من أموال الأثرياء وتنفقها على الفقراء، فيتمكن الفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم والذين هم تحت المصائب والآفات من الوقوف على أقدامهم، فلا يصاب القوم ولا الدولة بالضعف.

كما أن الحج أيضًا من أركان الإسلام، ولكن التدبر يكشف لنا أن الحج ينفع المسلمين أنفسهم، حيث يتعوّد به المرء على ترك وطنه من أجل الله تعالى. كما أن اجتماع المسلمين في مكة المكرمة من جميع أنحاء العالم يزيدهم شعورًا بالأُخوّة العالمية، ويقوّي بينهم أسس الاتحاد.

قصارى القول، إن كافة الأحكام التي أمر بها الإسلام إنما هي لمصلحة الناس، إذ ليس لله حاجة إلى أي شيء منها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

**شرح الكلمات:**

**سخّر:** سخّره: كلّفه عملاً بلا أجرة (الأقرب).

**التفسير:** لقد بين الله تعالى هنا أنه لو كان هو بحاجة إلى هذه القرابين البسيطة من الناس، فما الداعي لأن يسخر لخدمتهم كل شيء يوجد في الدنيا مع أنه مِلْكٌ لـــه وفي قبضته؟ إن كل ما خلقه الله تعالى إنما خلقه لمصلحتهم ومنفعتهم لكي يتمتعوا بهذه النعم ويترقوا.

إننا نرى أن العلم المعاصر لا يزال يكشف لنا صدق هذه الحقيقة التي بيّنها القرآن أكثر فأكثر، حيث تنكشف به خواص عجيبة لآلاف الأشياء التي كانت تُعَدّ من قبل عديمة الجدوى كلية. فقد قتل الزرنيخُ والبيشُ وجوزُ القيء آلافَ البشر على مدى التاريخ، ولكنها تتسبب الآن في حياة الملايين. لا شك أن آلاف الناس يموتون نتيجة لدغ الثعابين، ولكن تُجلب من سُمّها اليوم منافع شتى حيث يُستعمل في علاج أمراض فتاكة كثيرة، وينال به ملايين البشر حياة جديدة. وهذا الغائط، الذي هو شيء قذر جدًّا ويبدو غير مفيد في الظاهر، يتحول إلى السماد وينفع الإنسانية نفعًا كبيرًا. فليس هناك شيء ليس فيه نوع من الفائدة وأنه لم يُخلق لنفع الإنسانية. انظروا إلى الجبال مثلاً، كم هي نافعة للناس. حينما يلفَح قيظ الصيف جسد الإنسان يفر إلى قمم الجبال ليعيش هناك في راحة بعيدًا عن حرقة الشمس. ثم إن هذه الجبال هي التي تمدّ الناس بمعادن ثمينة كثيرة كالذهب والفضة

والحديد وحجر البلق والكروم وغيرها. ويُستخرج من هذه الجبال نفسها الملح الذي تتوقف عليه الحياة الإنسانية. وعلى الجبال تنبت أنواع كثيرة من الأعشاب والتوابل التي ينتفع بها الإنسان في الطب والتجارة. كما أن الأنهار والجداول النابعة من على الجبال تروي البلاد كلها، فتنبت الزروع وتخضرّ البساتين. أما الأشجار فتنفع الناس وتسد حاجاتهم من خلال الخشب والفحم للبناء والعمارة ولإشعال النار للطبخ والتدفئة.

قصارى القول، ليس في الدنيا شيء إلا وقد خلقه الله تعالى لنفع العباد، وإذا كان الناس لم يعرفوا بعد فائدة شيء من الأشياء فإنما سببه نقصان علمهم فحسب، وإلا فإن الله تعالى قد خلق كل ما في الأرض لفائدة البشر. لقد خلق ﷻ لنفع العباد الجبال وثلوجها وأشجارها وأزهارها وأعشابها ومناجم فحمها ورصاصها ونحاسها وأحجارها الكريمة من جواهر وغيرها. لقد خلق حيوانات الصحراء وأسماك البحار وطيور الهواء أيضًا لفائدة البشر. فكل شيء قد خُلق لخدمة العباد فقط، سواء ما يخرج من الأرض وما ينبت في البراري وما يُستخرج من قعر البحار أو يجلب من الجبال. ولكن المؤسف أن الإنسان الذي قد خلق الله هذه الأشياء لخدمته يبلغ من الغباء أنه يخر تارة أمام الأصنام الحجرية التي هي جماد ولا حياة فيها، وتارة أخرى يعتبر النجوم سبب كل بركة أو نحس، وحينًا يعبد الشمس والقمر غافلاً عن ذلك الإله الذي خلق هذه الأشياء كلها لتكون خادمة لـــه. حينما يقف الإنسان أمام هذه الأشياء خاشعًا ومتوسلاً إليها في تذلل وهوان، فإنما مثله كمثل سيد يتوسل إلى خادمه أو كمدير شركة يخاف من عامل بسيط يعمل تحته. ولو أن الناس رأوا مشهدًا كهذا في الدنيا لعَدّ كلّهم هذا السيد أو المدير مجنونًا، ولكن ما أكثرَ هؤلاء المجانين في عالم الأديان، الذين رغم كونهم أشرف

المخلوقات ينسبون إلى هذه الأشياء صفات ربانية وقدرات إلهية، وهكذا يسيئون إلى إنسانيتهم إساءة كبيرة.

أما قوله تعالى ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ﴾ فهو بيان بأن الله تعالى قد جعل لإنـــزال العذاب قيودًا وشروطًا لينتفع منها الناس، فيُصلحوا أحوالهم ويوثّقوا صلتهم بالله تعالى، وينجوا بأنفسهم قبل أن يحيط بهم العذاب.

وليكن معلومًا أن العذاب نوعان: عذاب شرعي وعذاب طبيعي. ولا يأتي العذاب الشرعي إلا إذا كذب الناس رسولاً من الله تعالى، أما العذاب الطبيعي فليس مشروطًا بهذا الشرط، بل كلما غفلت أمة عن الأخذ بالأسباب التي خلقها الله تعالى للرقي في العالم المادي هلكت وفق القانون الإلهي العام. لقد ظهرت على خريطة العالم آلاف الأمم والحكومات حتى اليوم، ثم أصابها الضعف والانحطاط فهلكت حتى لم يبق لها في العالم من أثر. وهذه الشعوب لم تهلك لأنها لم تكن تحب الله تعالى أو كانت تنكر رسل الله، وإنما هلكوا لأنهم غضوا الطرف عما خلقه الله تعالى في الدنيا من أسباب للرقي.

وقد ذكر الله تعالى هذين النوعين من العذاب في العديد من آيات القرآن الكريم. فقال عن العذاب الشرعي ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ (الإسراء:١٦). فعندما تقام عليهم الحجة بمجيء الرسول، ويزدادون إنكارًا وتكذيبًا له نقرر إهلاكهم في آخر المطاف، فيقعون فريسة للعذاب. وعلامة العذاب الشرعي الذي يحل بالناس نتيجة تكذيبهم للرسل أن الله تعالى ينذرهم منه قبل حلوله من خلال نبوءات شتى، أو تقع قبل نـــزوله في الدنيا آفات وبلايا بشكل لا مثيل له في الأيام الخالية؛ فمثلاً تقع الزلازل بعد الزلازل بغتة، أو تجتمع الأوبئة والأمراض والمجاعة والحروب وغيرها من الكوارث في وقت واحد حتى تقوم بسببها ضجة في العالم، ويعترف الجميع أنها أحداث غير عادية.

وقد أخبر القرآن الكريم أيضًا أن العذاب الشرعي يحل على فترات لكي يهبّ الناس من سباتهم نتيجة هزات العذاب المتعاقبة هذه، فلا يهلكوا كلية. وقد ذكر الله تعالى هذا القانون في قوله ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾(يونس:٢٢).. أي حينما نذيق الناس طعم الرحمة بعد محنة تصيبهم يشرعون على الفور في الكيد والمكر ضد آياتنا. فقُلْ لهم إن كيد الله أسرع تأثيرًا، وأن رسلنا يسجلون ما تكيدون. لقد بين الله تعالى هنا أن عذابه لا ينـــزل دفعة واحدة، بل تقع هزة من العذاب ثم تنتهي لكي يتوب الناس ويرتدع الظالمون عن الظلم والإثم، ولكن أصحاب الطبائع الشريرة لا يأخذون العبرة من هذا الإنذار، بل يخافون قليلاً وقت العذاب، ثم إذا خفّ العذاب قليلاً عادوا ثانية إلى مكرهم وكيدهم ضد وحينا وأحكامنا. إن مكر الله تعالى نافذ بسرعة، ولكنه تعالى لا ينفذه على الفور رحمة بالعباد؛ فإنه تعالى لا يمكن أن ينسى أفعال الناس حتى يضطر إلى الانتقام منهم فورًا، كما لا مانع لـــه من عقابهم حتى يُظَن أنه إذا لم يعاقب الآن فربما يتعذر عليه عقابهم فيما بعد. كلا، بل إنه قادر على عقابهم في أي وقت شاء، ولا يخفى عليه من شيء، فعلى المعارضين أن لا يلجأوا إلى الكبرياء والإعراض، فإن الله تعالى إذا ما قرر هلاكهم فلن ينقذهم منه مكر ولا كيد.

هذا فيما يتعلق بالعذاب الشرعي. أما العذاب الطبيعي فقال الله عنه ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١٢).. أي أنه تعالى لا يغيّر حالة قوم ما لم يغيّروا باطنهم. إنهم حين يتردَّون بسوء أعمالهم من المكانة التي وهبها الله لهم يتغير السلوك الإلهي تجاههم أيضًا، فيسقطون في الحضيض. وهذا يعني أن الله تعالى يريد للناس أن يرثوا إنعامه، لكنهم إذا أكلوا السم بأيديهم أنهى الله تعالى حياتهم طبقًا للقانون الإلهي.

هذه هي النواميس الإلهية التي أشير إليها في هذه الآية حيث بين الله تعالى أنه بيد رحمته قد أمسك عنكم العذاب، فجعل نـــزوله مشروطًا بأنواع الشروط، فمن واجبكم الآن أن تنتفعوا من هذا القانون، لتنجوا من العذاب الشرعي بطاعة أحكامه، وتتجنبوا العذاب الطبيعي باتباع القوانين الطبيعية، وتنتفعوا من نعماء الله تعالى حق الانتفاع.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

**شرح الكلمات:**

**كَفور**: كفَر نعمةَ الله: جحَدها وستَرها وهو ضدُّ الشكر. وفي الكليات (لأبي البقاء): "الكفر تغطيةُ نعم المنعِم بالجحود (الأقرب).

**التفسير**: أي أن الله تعالى يحقق الرقي للإنسان دائمًا، ويصيبه بالدمار أيضًا إذا عصاه بعد الرقي، وذلك لكي يتطهر قلبه، وإذا ما تطهر قلبه أحياه ثانية. ومع ذلك يرى الإنسان نعم الله كلها ثم يجحدها.

ويتضح من قوله ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أن الله تعالى محي ومميت في وقت واحد، وأن كل موت مقرونٌ بحياة. فالطعام الذي نأكله إذا مات وتلف صار شيئًا ثمينًا كالسماد. إن رغيفًا واحدا لن ينفع المرء أكثر مما في الرغيف الواحد من نفع، ولكن الله تعالى يجعل عشرةَ أرغفة من رغيف واحد يتحول إلى غائط ثم إلى سماد. فلا شيء في الدنيا يأتي عليه الموت إلا ويؤدي إلى نوع من الحياة. إن الأعمى روحانيًّا حين لا يرى يقول إن الله يميت، ولكن البصير حينما يرى يقول إن الله يحيي. والحق أن العين البصيرة إنما توهب لأنبياء الله ورسله وجماعاتهم. فثبت أن الموت لا يأتي وحده من عند الله تعالى، بل كل موت يأتي حاملاً معه رسالة حياة.

لا جرم أن بعض المسلمين قد استُشهدوا في وقعة بدر، ولكن ألم تكن تلك المعركة هي التي أحيت العربَ. ولا شك أن بعضًا من المسلمين ماتوا في غزوة أحد وكذلك في غزوة الأحزاب، ولكن هذه الغزوات لما أدت إلى إصلاح العرب بدأ كل واحد منهم يرى روح الحياة. ثم قد حصلت بعض الوفيات لدى فتح مكة أيضًا، ولكن لولا فتح مكة لاستحال إحياء مئات الآلاف من العرب ثانية. فبوسع كل إنسان أن يدرك أن حياة العرب كانت كامنة في هذه الوفيات. إذًا، فالموت يؤدي إلى الحياة شريطة أن يعود الناس إلى الله تعالى، ويحدثوا تغيرًا طيبًا في حياتهم العَملية.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾

**شرح الكلمات:**

**نَاسِكُوه:** نسَك الرجلُ نسْكًا: تَزهَّدَ وتَعبَّدَ وتقشَّفَ. ونسَك لله: تَطوَّعَ بقربةٍ وذبَح لوجهه (الأقرب). فالناسك هو العابد؛ مَن يضحي لوجه الله تعالى.

**مَنْسَكًا:** المنسَك: شرعةُ النَسْك (الأقرب).

**فلا ينازِعُنّك:** نازَعه منازعةً: خاصَمه (الأقرب).

**التفسير:** أي لا بد لكل طائفة من تعليم ودين، فلا مبرر عند المعارضين لأن يخاصموك في دينك. عليهم أن يروا ما إذا كان دينك يدعو إلى الله تعالى أم لا، وهل يهدي الناس إلى الصراط المستقيم أم لا. إن دينك يدعوهم إلى الله تعالى صراحة ويقول ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ (الحج:٣٥)، ويأمرهم بالسير في الصراط المستقيم إذ أُمروا بأن يدعوا في كل صلاة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وما

دام الأمر هكذا فثبت أنهم يعارضونك بغضًا وحسدًا فحسب، إذ لا مبرر للنـــزاع مع من يدعو الناس إلى الله الأحدِ ويهديهم إلى الصراط المستقيم. إنما يجوز نـــزاعه إذا كان ينكر وجود البارئ تعالى، أو إذا ثبت أن بوسع الإنسان تحقيق غايته بدون السير على الصراط المستقيم. ولكن ما دام من المحال تسمية أي دين دينًا بدون الإقرار بوجود الله تعالى، وما دام إحراز أي نجاح مستحيلاً بدون السير على الصراط المستقيم، فثبت أن الأعداء إنما ينازعونك حسدًا وبغضًا، ولا يخاصمونك لسبب معقول.

وقوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ يمثّل نبوءة من الله تعالى بأنه مهما عارضت الدنيا محمدًا رسول الله ﷺ إلا أن التعليم الذي يقدمه سيكون هو الغالب في العالم في نهاية الأمر، وأن رايات الأديان كلها ستخضع إزاء راية الإسلام لا محالة. وليس خافيًا على أحد كيف كانت حالة الدنيا حين قدّم رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد. فكان النصارى يؤمنون بثلاثة آلهة. وكان الزرادشتيون يعتقدون بوجود إلهين اثنين: إله النور وإله الظلام. وكان المجوس يعبدون النار. وأما عبدة الأوثان فكانوا يؤلّهون اللاتَ ومناة. إذًا، فكانت الدنيا كلها مليئة بالشرك والوثنية. ولكن التوحيد الذي قدمه الإسلام صار غالبًا على الدنيا كلها؛ حتى إن المسيحيين أنفسهم اضطروا لأن يدّعوا بأنهم موحدون، وأن عبدة الأصنام يعترفون بأن الله واحد وأن هذه الأصنام إنما هي وسيلة للوصول إلى البلاط الرباني. والحق أن الإسلام لما أعلن وحدانية الله تعالى أصيب أهل مكة تجاه هذه الدعوى بحيرة شديدة، فأخذوا يقولون ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ﴾(ص:٦). وهذا يعني أنهم ظنوا أن هناك آلهة كثيرة، ولكن هذا يقول بوجود إله واحد، فربما قام بطحن الآلهة كلها وجعل منها إلهًا واحدًا! أما اليوم فإن الدنيا كلها تعتنق التوحيد، حتى إن الأمم الوثنية نفسها لا تجرؤ على إنكار التوحيد رغم انغماسها في

شتى الأعمال الوثنية. ونفس الحال بالنسبة للقضايا الأخرى. فمنذ أمد بعيد لم تزل أوروبا تطعن في أحكام الإسلام، أما اليوم فقد بدأ بعض أهلها المثقفين من الطبقات العليا يعترفون بصدق الإسلام بناءً على نفس الأحكام الإسلامية التي كانت مصدر طعن عندهم من قبل. لما ذهبت إلى لندن من أجل العلاج رغب في الإسلام قبل وصولي هناك عازف شهير للبيانو كان يعمل في أوبرا كبيرة بلندن. فعلمتُ من دُعاتنا هناك أن هذا الرجل رغب في الإسلام لسبب عجيب مختلف تمامًا عن الأسباب العادية، مما يكشف أن الله تعالى قد أخذ يحدث انقلابًا في عقول هؤلاء القوم. وبيان ذلك أن قضية تعدُّد الزوجات كانت تُعتبر من قبلُ أكبر عائق في دخول الناس في الإسلام حيث كان الأوروبيون يقولون بإصرار شديد أن الزواج بأكثر من امرأة ظلم عظيم. أما اليوم فقد أصبح الوضع مختلفًا إذ إن هذا العازف الشهير لما دخل في قلبه حب الإسلام ذهب إلى بعض المسلمين الآخرين وسألهم ما هو موقف الإسلام من تعدد الزوجات؟ فحوقلوا وقالوا إن أعداء الإسلام قد عرضوا هذه القضية على الناس بشكل مشوه؛ فليس في الإسلام أي حكم كهذا؛ وإنما جعل هذا الإذن مشروطًا بشروط وقيود. يقول هذا العازف: لما سمعتُ منهم هذا الجواب قمت فورًا وقلت لهم: إن تعدد الزوجات هو الميزة البارزة للإسلام عندي، بينما تقولون أنه قد جعل هذا الأمر مشروطًا بشتى القيود والشروط. إني أريد الالتحاق بالمسلمين الذين يعلنون صراحة إن الإسلام قد أذن بتعدد الزوجات. فجاء هذا الشخص إلينا وسألنا عن موقف الإسلام بهذا الشأن. فقال له دُعاتنا إن الإسلام يسمح بذلك، ولكنه قد أمر الزوجَ بالعدل بين زوجاته وأداء حقوق كل واحدة منهن. فقال: هذا هو الصحيح، وهذا ما يقبله عقلي؛ وأرى أن أوروبا قد فقدت الكثير بترك هذا التعليم، وأفسدوا أخلاقهم؛ لذا لن أذهب بعد ذلك إلى أحد سواكم. ثم قابلني أنا وجاء بأهله وأولاده إلى محل إقامتي.

كذلك زارتني سيدة ألمانية كانت قد أسلمت حديثًا، فقالت لي خلال الحديث إن الجنـــرال نجيب كان قد أرسلني إلى الملك السعودي، فاقترح علي الزواج من ابنه. فقلت لهذه السيدة: اشكري الله تعالى أنك نجوت منهم، إذ توجد عند هؤلاء زوجات عديدة! فقالت: ليس الواقع هكذا، وإنما تكون لهم زوجة واحدة، أما الأخريات فهن السراري. ثم قالت لي: ما دام الإسلام قد سمح بالزواج من أكثر من زوجة فكيف أعترض على ذلك وقد أسلمتُ. وأضافت قائلة: لقد تحدثتُ مع القسيسين مرارًا، وكان أحدهم قد ألقى خطابًا ضد تعدد الزوجات، فقلت لـــه: إنك جد غبي. إنني أنا المرأة، وأنا التي تكون لها الضرة وليست لك، ومع ذلك لا اعتراض عندي على تعدد الزوجات، فلماذا تتضايق أنت من هذا الحكم؟ إنني أفهم الحكمة وراء هذا الحكم الإسلامي جيدًا. لقد أذن الإسلام بتعدد الزوجات، ولكنه قد أمر الزوجَ أن لا يفرق بين زوجة وأخرى في الطعام والثياب والمسكن، فلِمَ تعترض المرأة على ذلك والحال هذه؟ إننا في الغرب نتزوج بعد الصداقات الطويلة، ومع ذلك يحصل الخصام بين الزوجين بعد صداقة تطول سنتين أحيانًا. أما في حالة تعدد الزوجات فيكون لي بيت، ولضرّتي الأولى بيت آخر، ولضرتي الثانية بيت ثالث؛ ولو خاصمني زوجي سآخذه من يده في المساء وأدفعه إلى البيت الآخر وأقول لـــه: لقد تحملتك في بيتي بوجهك النحس طيلة اليوم، فلتَرَه الآن زوجتك الأخرى. فإذا كان الزوجان في أوروبا لا يتخاصمان أبدًا بعد زواج يتم بعد الصداقة كان لاعتراضهم على تعدد الزوجات ثقل ووزن، ولكن ما دامت الخصومات تقع في بيوتهم، فيصبح هذا الحكم الإسلامي خيرًا للمرأة، إذ بإمكانها أن تأخذ زوجها من يده وتدفعه إلى بيت زوجته الأخرى كلما خاصمها كيلا ترى وجهه الغضبان طوال اليوم.

ولما حكيتُ قصة هذه السيدة لذلك العازف قال: لا تستغرب من قولها، فإن بإمكاني أن أدلّك على عشرات الآلاف من النساء اللواتي هن على استعداد لأن يسمحن للرجل بالزواج من أكثر من امرأة شريطة أن يعدل بينهن. ولكن المشكلة أن أخلاق الناس في بلادنا قد فسدت لدرجة بحيث أصبح العثور على أزواج طيبين أمرًا متعذرًا.

فترى كم هو عظيم هذا الانقلاب الذي أخذ يحصل في نفوس هؤلاء القوم!

كما أخبرني العديد ممن قابلتهم أنهم لم يشربوا الخمر منذ عشرين أو ثلاثين سنة، إذ يرون شربها أمرًا قبيحًا. وكان الأوروبيون يعترضون في الماضي على الحجاب أيضًا، أما اليوم فأخذ بعضهم يعترفون بضرورته. بل هناك ما هو أكثر غرابة. فقد أخبرني ذلك العازف الشهير الآنف الذكر أنه قد قرأ كتابي "ديباجة تفسير القرآن" وقد خالجه الشك بقراءته. فقلت لـــه ما الذي رابك فيه؟ قال: لقد ذكرتم فيه أن رسول الله ﷺ كان معتكفًا في المسجد ذات مرة، فجاءته إحدى نسائه تزوره، وجلستْ عنده حتى حل الليل، فخرج معها ليوصلها إلى البيت. فمر بهما شخص، فخاف النبي ﷺ أن يظن به هذا الشخص الظنون، فتزلّ قدمه بعد ثبوتها. فكشف ﷺ وجه زوجته وقال لـــه: انظر، إنها زوجتي.*

* ورد في الحديث: "عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مُعْتَكِفًا، فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيلا، فَحَدَّثْتُه. ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ، فَقَامَ مَعِي يَقْلِبُنِي. وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْد. فَمَرَّ رَجُلان مِنَ الأنصَارِ، فَلَمَّا رَأَيَا النبيَّ ﷺ أَسْرَعَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ. فَقَالا: سُبْحَانَ اللَّه، يَا رَسُولَ اللَّه. فَقَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا، أَوْ قَالَ شَيْئًا". (مسند أحمد: مسند باقي الأنصار رقم الحديث ٢٥٦٣٠، والبخاري: أبواب الاعتكاف). *(المترجم)*

قال هذا العازف: لما قرأت ذلك قلت في نفسي إن الحجاب حكم عظيم من أحكام الإسلام، وهو روح الطهارة؛ فالذي قد رأى خدمات النبي ﷺ وتضحياته وإيمانه وإخلاصه وحبه لله تعالى طيلة هذه المدة الطويلة أي ستين سنة، ومع ذلك تنتابه الشكوك والشبهات حول سيرته ﷺ، فليهلك ذلك الشقي وليذهب إلى الجحيم، ولا داعي أن يكشف النبي ﷺ من أجله وجه زوجته؟

فقلت لـــه: أليس قصدك أنك تظن أن النبي ﷺ قد ضحى بشيء كبير من أجل شيء صغير؟ كان إيمان هذا الشخص ذا قيمة بلا شك، ولكنه إيمان ضعيف، حيث شك في طهارة النبي ﷺ، فكشفُ النبي ﷺ وجهَ زوجته حفاظًا على إيمانه يماثل تضحية شيء عظيم من أجل شيء حقير. قال: نعم، هذا ما يحيرني. قلت: هذا يعني أنك تسلّم بضرورة التضحية بالشيء الصغير للشيء الكبير. والحق أن الحفاظ على إيمان ذلك الشخص كان أكبر من بقاء وجه زوجة النبي ﷺ في الحجاب. قال: كيف؟ قلت: أنت تعرف أن حكم الحجاب لم يَرِدْ في الشرائع السابقة، وتعلم أيضًا أن أمر الحجاب نـــزل في الأعوام الأخيرة من حياة النبي ﷺ، حيث مكث النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة دون أن ينـــزل حكم الحجاب؛ ولم يُفرَض الحجاب خلال السنوات الأربع أو الخمس الأولى بعد هجرته إلى المدينة أيضًا؛ وهذا يعني أن زوجات النبي ﷺ لم يلبسن الحجاب سبع أو ثماني عشرة سنة من مجموع الثلاث والعشرين سنة التي عاشها النبي ﷺ بعد إعلانه النبوة. وحيث إن الحجاب قد فُرض بعد الهجرة إلى المدينة بأربع أو خمس سنوات فلا بد لك من الاعتراف أن كل صحابي – تقريبًا – قد رأى كل واحدة من زوجات النبي ﷺ. فما الحرج إذا كشف النبي ﷺ وجه السيدة التي قد رآها ذلك الشخص عشرات المرات قبل هذا الحادث، حفاظًا على إيمانه. لقد كان هذا رأى نساءه ﷺ في شبابهن، أما الآن فكنّ قد صرن عجائز؛ فكشفُ النبي ﷺ عن وجه زوجته العجوز

للحظة حفاظًا على إيمان ذلك الشخص الضعيف الإيمان ليس بأمر ذي بال. وهذا يعني أن النبي ﷺ لم يضحّ بشيء كبير من أجل شيء صغير، بل ضحى بالشيء الصغير للشيء الكبير. ففرح هذا الأخ بقولي، وقال لقد فهمتُ الأمر الآن.

فما أعظمَ الانقلابَ الذي حصل في أفكار هؤلاء! كانوا يقولون من قبل حيث إن الإسلام يأمر المرأة بالحجاب فهو دين باطل، أما اليوم فيقولون: لماذا رفع النبي ﷺ النقاب عن وجه زوجته وقت الليل ولو للحظة لكي يحفظ إيمان شخص واحد؟

لقد جاء لمقابلتي دسموند شو (Desmond Shaw)، الذي يُعَدّ من كبار الكتّاب في إنجلترا، بل إنه يعدّ نفسه أفضل من H G Wales، وقال إن أكبر ظلم يُرتكب في العالم هو أن النبي ﷺ الذي نشر السلام في الدنيا أكثر من أي نبي آخر يوصف بـــ "نبي الحرب"، ويجعله القسيسون عرضة للمطاعن. ثم قال لي: لعلك تعدّني مجنونًا، إذ تقول في نفسك: كيف يتكلم مسيحي بهذا الكلام؟ صحيح أنني مسيحي، ولكني على يقين أن محمدًا رسول الله ﷺ كان أفضل من المسيح عليه السلام، وأن التعليم العظيم الذي أتي به محمد ﷺ لم يأت به المسيح عليه السلام.

ولما ودّعته ورجعتُ إلى غرفتي شعرت بأن شخصًا قادم ورائي، فلما نظرت إلى الوراء رأيته قادمًا إلي. فقال لي: لقد خطر ببالي سؤال وأردت أن أسألك إياه. قلت: ما هو؟ قال: إنني عندما أقول للناس أثناء خطبي إن محمدًا رسول الله ﷺ أفضل الأنبياء قاطبة أشعر وكأن الله تعالى يتكلم بداخلي، ومع ذلك لا يقبل هؤلاء النصارى قولي؟ قلت: أيها السيد دسموند شو، إن هؤلاء إنما يسمعون صوتك فقط ولا يسمعون صوت الله تعالى، ولكنهم عندما يسمعون صوته تعالى ويتكلم الله في قلوبهم أيضًا عندها سيتأثرون من قولك معترفين بعظمة محمد رسول الله ﷺ. فاطمأن بجوابي.

إذًا، فالدليل الذي يذكره الله تعالى هنا بقوله ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ على صدق نبيه ﷺ هو أن الدنيا مهما أصرت على الإنكار إلا أنها ستعود في نهاية المطاف إلى التعليم الذي تقدمه أنت يا محمد بعد تعرُّضها لشتى العثرات والويلات، ذلك لأنك سائر على الصراط المستقيم، أما هؤلاء فهم تائهون في الغي والضلال.

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٧٠﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧١﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧٢﴾

**شرح الكلمات:**

**جادَلوا:** جادَلَه: خاصَمَه شديدًا (الأقرب).

**يسيرٌ:** اليسيرُ: القليلُ؛ الهيِّنُ (الأقرب).

**التفسير:** أي أنهم إذا ما خاصموك بالباطل وجادلوك بعد أن بينتَ لهم البراهين ودعوتهم إلى الصراط المستقيم، فقل لهم ارتقبوا مصيركم إذا كنتم لا تريدون أن تهتدوا باتباع هذا الدين، ثم انظروا أيّ الفريقين يتلقى النصرة من عالم الغيب.

ثم ساق الله تعالى ثلاثة براهين ضد الشرك كالآتي:

**الأول:** ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَمْ يُنـــزلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.. أي ليس بوسع المشركين تقديم أي دليل من الأسفار السابقة على عبادة الأشياء التي يعبدونها سوى الله تعالى. إنما يعبدونها مقلدين آباءهم تقليدًا أعمى.

**الثاني:** ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.. أي أنهم عاجزون أيضًا عن أن يقدّموا أي دليل على عبادة آلهتهم الباطلة بناء على ما جربوه أو شاهدوه بأنفسهم. وحيث إن الأمر وثيق الصلة بنجاتهم في الآخرة، فكان لزامًا عليهم أن لا يتبعوا شيئًا لمجرد أنهم سمعوه من الآخرين، بل كان عليهم فحص الأمر وتدبره بأنفسهم. ولكنهم اتبعوا ما سمعوه دون أن يُعملوا بصيرتهم.

**الثالث:** ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.. أي أن المشركين يظلون محرومين من نصرة الله وتأييده كلما تمّتْ المواجهة بينهم وبين الموحدين، مما يؤكد أنهم على الخطأ.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

**شرح الكلمات:**

**المنكَر:** المنكَر ما ليس فيه رضى الله من قول أو فعل (الأقرب).

**يَسطُون:** سطا عليه يسطو: صال عليه ووثَب. وقيل: قهَره بالبطش، أو بسَط عليه بقهره من فوق (الأقرب).

فالمراد من قول الله تعالى ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ (١) أنهم يهجمون على المؤمنين، (٢) أنهم يمارسون عليهم أنواع الضغط ليمنعوهم من نشر الدعوة.

**المصير:** المرجع والمعاد (الأقرب)

**التفسير**: يبين الله تعالى هنا أن الأشرار يثورون غضبًا عند سماع الحق ويصولون على المؤمنين محاولين منعهم من التبليغ بممارسة كل أنواع الضغط. إنهم لا يدرون أن قبول الحق خير لهم، وأنهم سيعانون إذا لم يقبلوه. إنهم بسبب حماسهم المفرط فحسب يندفعون إلى إثارة الفتنة والفساد ويؤذون المؤمنين.

وبالفعل ترى أن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام لما أعلن أن المسيح عليه السلام قد تُوفي كغيره من الأنبياء اندلعت نيران المعارضة في الهند من أقصاها إلى أقصاها، وثار طوفان المخالفة من كل مكان. فأخرج العلماء كل ما في جعبتهم ضده عليه السلام، وانكسرت أقلامهم وهم يكتبون خلافه، وجُرحت ألسنتهم من كثرة الخطب. إنهم لم يألوا جهدًا في أن يسموه عليه السلام كافرًا بل أكفر، ودجالاً وضالاً ومضلاً، حتى استصدروا الفتاوى ضده عليه السلام من علماء البلاد العربية. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد أكد كل يوم طلع بعد ذلك أن بعضًا من أتباع هؤلاء العلماء صاروا منكرين لحياة المسيح عليه السلام وإن لم ينضموا إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية. أما اليوم فلن تجد بين المثقفين المعاصرين أحدًا يؤمن بحياة المسيح عليه السلام، بل لو ناقشتَ هذه المسألة مع المسلمين عمومًا قالوا دَعْك من هذا، فما الجدوى من مثل هذا النقاش؟ مما يدل على أن قلوبهم بدأت تستيقن بوفاة المسيح عليه السلام.

وكذلك لما قال مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام إن الله تعالى قد بعث أنبياءه في كل بلد وقطر ثار الناس ضده وقالوا انظروا كيف يعتبر رام تشندر وكرشنا من الأنبياء وهكذا يعدّ هؤلاء الكفرة من رسل الله تعالى. أما اليوم فحتى أشد معارضينا أيضًا قد سلّموا بصحة هذه المسألة، وقد نشرت الجرائد المعارِضة مقالات عديدة بأن الإسلام يعترف بصدق الأنبياء السابقين سواء كانوا في اليهود أو الهندوس أو الزرادشتيين وغيرهم.

وكذلك عندما أعلن مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام أن القرآن كتاب متّسم بالكمال، وأنه لا نسخ فيه مطلقًا، ثار المشايخ ضده وأرغوا وأزبدوا، أما اليوم فتجد حتى علماء المسلمين وكذلك المتدينين من عامتهم، يستدلون بكل آية من القرآن الكريم، ولا يسلّمون بنسخ أي آية منه.

وحصل هذا في كل زمن خلا، فكلما جاء نبي وبلّغ رسالة الله عارضه الناس، وآذوه أشد الأذى، ولكن في نهاية المطاف اضطرت الدنيا لقبول ما جاء به الأنبياء معترفة بهزيمتها. لقد تحدث الله تعالى في هذه الآية عن هذا السلوك المعاند من قبل المعارضين، فبين أنه إذا تُليت عليهم آياتنا بيناتٍ ترى في وجوه الكافرين آثار الكراهية الشديدة، يكادون يهاجمون الذين يقرأون عليهم آياتنا، ذلك بسبب انكشاف عجزهم عن تقديم الدلائل والبراهين العقلية والنقلية. يقولون في أنفسهم لا يمكننا التغلب على الأنبياء بالأدلة والبراهين، إنما السبيل لذلك هو اللجوء إلى القوة وشَجِّ رؤوس القوم الذين ينحرفون عن عقائدنا بالعصي والهراوات. ولكن المؤمنين يصبرون على عدوانهم مدركين أن من سنة الله تعالى أنه يجعل عباده يعبرون أنهار البلايا والشدائد أولاً، ثم يمنحهم قربه. لم يُبعث في العالم نبي إلا وامتحن الله جماعته بأشد البلايا والمحن وطهرهم بإلقائهم في بوتقة المصائب. وعندما أكدوا على صدقهم بتضحية دمائهم وأموالهم وأوطانهم وأهاليهم وأقاربهم أكرمهم الله عنده إكرامًا عظيمًا، فكانوا من الفائزين في الدنيا ومِن أهل الدرجات العلى في الآخرة. فعلى المؤمنين أن لا يخافوا من إيذاء المعارضين، وإنما عليهم الصبر على أذاهم، مستعينين بالله بالدعاء والابتهال. فإن القلوب كلها في يد الله تعالى وتصرفه، يهديها متى شاء. ورد في التاريخ أنه في غزوة حنين انضم إلى جنود المسلمين أحد الأعداء من مكة، واسمه شيبة، وكان بنيته أنه إذا التقى الجمعان وسنحت لـــه الفرصة قتل النبيَّ ﷺ. فلما حمي الوطيس وتشتت المسلمون نتيجة ما أمطره

المشركون عليهم من سهام، ولم يبق مع النبي ﷺ إلا بضعة من أصحابه، أصلتَ شيبةُ سيفه وأخذ يدنو من النبي ﷺ. يقول شيبة: لما اتجهت إلى النبي ﷺ "رُفِعَ إلي شُواظٌ من نار كالبرق كاد يُهلكني، فحالَ بيني وبين النبي ﷺ. وفيما أنا في ذلك حتى نادني النبي ﷺ وقال: يا شيبة، ادْنُ منّي. ولما اقتربتُ منه مسحَ صدري وقال: اللهم أَعِذْه من همزات الشيطان." قال شيبة: فوالله ما إنْ مسح النبي ﷺ بيده صدري حتى خرجت منه كل ما أكنّه نحوه من عداء وبغضاء، وصرت مشغوفًا بحبه ﷺ. ثم قال لي النبي ﷺ: هلمّ يا شيبة، قاتِلِ الأعداء. فتقدمت وقاتلتهم. ولم يكن في قلبي إذاك أمنية إلا أن أضحي بنفسي دفاعًا عن النبي ﷺ. ووالله لو كان أبي حيًّا ووجدتُه أمامي لم أتردد عن ضرب عنقه أبدًا. (السيرة الحلبية: غزوة حنين، الجزء الثالث ص ١٢٨)

فعلى المرء أن يدعو ويصبر عند المعارضة، ولا يدَع اليأس يقترب منه أبدًا. انظروا إلى رسول الله ﷺ كيف عارضه أهل مكة معارضة شديدة واستهزأوا بما جاء به، ولكنه لم يقنط ولم ييأس، بل استمر في دعوتهم بغير انقطاع. كان من عادته ﷺ أنه كلما وجد مجموعة من الناس جلوسًا، ذهب إليهم وقال لهم هل تسمحون لي بأن أحكي لكم شيئًا عن الله تعالى؟ وبما أن أهل مكة كانوا قد أشاعوا بين القوم أنه ﷺ مجنون – والعياذ بالله – فكان أهل المجلس يشير بعضهم إلى البعض بأنه مجنون، ثم يتسللون واحدًا بعد الآخر. وكان بعضهم يلقي القاذورات على رأسه ﷺ. وكان العديد منهم يسخرون منه ويستهزئون (السيرة النبوية لابن هشام: الجزء الأول، ذكرُ ما لقي رسول الله ﷺ من قومه). ولكنه ﷺ ما برح يبلغهم رسالة الله ليل نهار، وفي نهاية المطاف خرج منهم أناس نذروا أرواحهم في سبيل الإسلام. إذًا، فالمثابرة على الدعوة والاستعانة بالله تعالى والاستغاثة به هي السبيل للنجاح. ومن المستحيل أن ينجح قوم لا يتحلون بهذا التفاني والفداء.